فالقسمة هنا فاسدة لأن «من يتأبد ويتوحش» داخل في «الأنام» وكقول الآخر:

**فما برحت تومي إليك بطرفها وتومض أحيانًا إذا طرفها غفل**

فالقسمان في البيت متداخلان لأن «تومي وتومض» واحد.

**وكقول جميل:**

**لو كان في قلبي كقدر قلامة حبًا وصلتك أو أتتك رسائلي**

فالبيت يوهم بالتقسيم، ولكنه ليس كذلك لأن إتيان الرسائل داخل في الوصل.

## الالتفات

لعل الأصمعي «٢١٤هـ» أول من ذكر «الالتفات»، فقد حكى عن إسحاق الموصلي أنه قال: قال لي الأصمعي: أتعرف التفات جرير؟ قلت: وما هو؟ فأنشدني قوله:

**أتنسى إذ تود عنا سليمى بعود بشامة؟ سقي البشام**

أما تراه مقبلاً على شعره، إذ التفت إلى البشام فذكره فدعا له [(١)]

وقد عدّ ابن المعتز «الالتفات» من محاسن الكلام وبديعه، فعرفه ومثل له بعدة أمثلة من القرآن الكريم والشعر. ففي تعريفه له يقول: «**الالتفات هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك. ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر**» [(٢)] ثم مَثَّل لانصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، أو بعبارة أخرى لانصرافه عن الخطاب إلى الغيبة بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

فالالتفات في الآية الكريمة هو في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]، وعن هذا الالتفات يقول ابن الأثير: «**فإنه إنما صرف الكلام ههنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة، وهي أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها المخبر لهم ويستدعيَ منهم الإنكار عليهم، ولو أنه قال: إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها،**

---

(١) انظر كتاب العمدة ج٢ ص ٤٤؛ وكتاب الصناعتين ص ٣٩٢، والبشام: شجر ذو ساق وأفنان وورق ولا ثمر له.

(٢) كتاب البديع ص ٥٨.

**وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية، لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة»** [١].

ومثل ابن المعتز كذلك لانصراف المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة، أو بعبارة أخرى لانصرافه عن الغيبة إلى الخطاب بقول جرير:

**طرِب الحمام بذي الأراك فشاقني  لا زلتَ في عَلَل وأيك ناضر** [٢]

فجرير قد أخبر عن الغائب في الشطر الأول وهو «الحمام»، ولكنه في الشطر الثاني انصرف عن الاستمرار في خطاب هذا الغائب والتفت إلى مخاطبته بقوله: «لا زلت في علل وأيك ناضر» لزيادة فائدة في المعنى هي الدعاء للحمام.

أما النوع الثالث من الالتفات عند ابن المعتز وهو انصراف المتكلم عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر، فقد مثل له بقول أبي تمام:

**وأنجدتمو من بعد اتهام داركم  فيما دمع أنجدني على ساكني نجد**

فالشاعر وهو المتكلم هنا - يخبر من يخاطبهم بأنه يعلم أنهم قد اتخذوا دارهم في نجد بعد أن كانت في تهامة، ثم ينصرف أو يلتفت بعد ذلك إلى معنى آخر يتمثل في دعاء الدمع ومطالبته بأن يسعفه على ساكني نجد.

وجاء قدامة بن جعفر بعد ابن المعتز فعد «الالتفات» من نعوت المعان،ي وعرّفه بقوله: «الالتفات أن يكون الشاعر آخذًا في معنى، فيعترضه إما لشك فيه أو ظن بأن رادًا يرد عليه قوله، أو سائلاً يسأله عن سببه؛ فيعود راجعًا إلى ما قدمه، بمعنى يلتفت إليه بعد فراغه، فإما أن يذكر سببه أو يجلي الشك فيه» [٣].

ومن أمثلة ذلك عنده قول المعطل الهذلي:

**تبيين صلاة منا ومنهمو  إذا ما التقينا والمسالم بادن** [٤]

**فقوله: «والمسالم بادن»** رجوع عن المعنى الذي قدمه، حين بيّن أن علامة «صُلاة الحرب» من غيرهم أن المسالم يكون بادنًا والمحارب ضامرًا.

---

(١) المثل السائر ص ١٧٠.

(٢) **العلل بفتح العين واللام**: الشرب بعد الشرب تباعًا؛ والأيك: شجر؛ الواحدة أيكة؛ ويقال: شجر من الأراك

(٣) كتاب نقد الشعر لقدامة ص ١٠٦.

(٤) **تبين**: تستبين؛ صلاة الحرب بضم الصاد: الذين يقاسون حرها وشدتها وأهوالها جمع صالٍ؛ مثل: قاض وقضاة.

ومن أمثلته أيضًا قول الرماح بن ميادة:

**فلا صرَمه يبدو وفي اليأس راحة ولا وصله يبدو لنا فنكارمه** [١]

**فكانه يقول: «وفي اليأس راحة»** والتفت إلى المعنى لتقدير أن معارضًا يقول له: وما تصنع بصرمه أي هجره؟ فيقول مبينًا علة ما يرجوه من انكشاف صرمه وهجره: لأنه يؤدي إلى اليأس، وفي اليأس راحة.

ومن يقارن مفهوم **«الالتفات»** عند ابن المعتز وقدامة، ثم يتابع مفهومه عند غيرهم من أمثال أبي هلال العسكري، وابن رشيق، وفخر الدين الرازي والسكاكي، يجد أن منهم من يستوحي مفهوم الالتفات عند ابن المعتز أو قدامة، ومنهم من يخلط بين هذا الفن البديعي والاعتراض. وخير من عرض لموضوع **«الالتفات»** في نظرنا هو ضياء الدين بن الأثير فقد عالجه بوضوح وفهم لأسراره البلاغية، ولهذا آثرنا أن ننقل هنا خلاصة لكلامه عن **«الالتفات»** توضح حقيقته ووظيفته البلاغية، وتجنبنا الخلط الكثير الذي وقع فيه غيره من البلاغيين.

يستهل ابن الأثير كلامه، عن هذا الفن من فنون البديع المعنوي ببيان حقيقته فيقول: **«وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارةً كذا وتارةً كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة، لأنه ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة كالانتقالات من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماضٍ، أو غير ذلك مما يأتي ذكره مفصلاً.**

ويسمى أيضًا **«شجاعة العربية»**، وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات» [٢].

**أقسام الالتفات:**

ثم يقسم ابن الأثير الالتفات ثلاثة أقسام هي:

١- **القسم الأول:** في الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة.

---

(١) **الصرم بفتح الصاد:** ضد الوصل وهو الهجر والصد.

(٢) كتاب المثل السائر ص ١٦٧، ويتورد سواه: أي يعلو قرنه بما لا يعلوه سواه.

٢ - **القسم الثاني:** في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر.

٣ - **القسم الثالث:** في الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل، وعن المستقبل بالفعل الماضي.

وفيما يلي خلاصة لكلام ابن الأثير عن كل قسم من هذه الأقسام.

١ - فعن القسم الأول وهو الخاص بالرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة، يورد ابن الأثير أولاً، بعض علماء البلاغة في السبب الذي قصدت العرب إليه من وراء استعمال هذا الأسلوب، ثم يعقب عليها برأيه.

فعامة المنتمين إلى هذا الفن إذا سئلوا عن الانتقال عن الغيبة إلى الخطاب وعن الخطاب إلى الغيبة قالوا: كذلك كانت عادة العرب في أساليب كلامهم. وهذا القول عنده عكاز العميان كما يقال.

كذلك لم يرتض جواب الزمخشري عن هذا السؤال، بأن الرجوع من الغيبة إلى الخطاب إنما يستعمل للتفنن في الكلام والانتقال من أسلوب إلى أسلوب؛ تطرية لنشاط السامع وإيقاظًا للإصغاء إليه.

وعند ابن الأثير أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضته تلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تحد بحد ولا تضبط بضابط، لكن يشار إلى مواضع منها ليقاس عليها غيرها.

فالانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد يكون الغرض منه تعظيم شأن المخاطب، وقد يستعمل ذات الغرض للضد، أي للانتقال من الخطاب إلى الغيبة، ومن ذلك يفهم أن الغرض الموجب للاستعمال «**الالتفات**» لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود، وذلك المعنى يتشعب شعبًا كثيرة لا تنحصر، وإنما يؤتى بها على حسب الموضوع الذي ترد فيه. وفي الأمثلة التالية توضيح ذلك.

أ - فمن الالتفات بالرجوع والعدول عن الغيبة إلى الخطاب قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٨-٨٩][(١)]. وإنما قيل: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ﴾ وهو

(١) الإد بكسر الهمزة وتشديد الدال: الأمر الفظيع المنكر؛ وأده الأمر بتشديد الدال: أثقله وعظم عليه.

خطاب للحاضر بعد قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨] وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة، وهي زيادة التسجيل على قائلي هذا القول بالجرأة على الله، والتعرض لسخطه، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه، كأنه يخاطب قومًا حاضرين بين يديه منكرًا عليهم وموبخًا لهم.

ومن هذا النوع أيضًا، أي من الالتفات بالرجوع أو العدول عن الغيبة إلى الخطاب قول القاضي الأرّجاني:

وهل هي إلا مهجة يطلبونها؟ فإن أرضت الأحباب فهي لهم فدى
إذا رمتمو قتلي وأنتم أحبتي فماذا الذي أخشى إذا كنتمو عِدى؟

فالبيت الثاني قد جاء وهو خطاب للحاضر بعد البيت الأول وهو خطاب للغائب. فالعرض البلاغي من وراء الالتفات بالعدول عن الاستمرار في الإخبار عن الغائب إلى مخاطبته، هو تمثل أحبابه الغائبين في البيت الأول كأنهم حاضرون أمامه ليقرّعهم ويلومهم على عدم معاملته بالمثل، وذلك بالمقابلة بين مشاعرهم نحوه: هو على أتم استعداد لأن يفديهم بمهجته إن أرضاهم ذلك، وهم يرومون قتله بالتمادي في هجرانه والإعراض عنه كما لو كان عدوًّا. لهم ومما ينخرط في هذا المسلك، الالتفات بالرجوع من خطاب الغيبة إلى خطاب النفس، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت:١١-١٢].

فالآية مثال للالتفات بالعدول عن الغيبة إلى خطاب النفس فإنه قال: ﴿وَزَيَّنَّا﴾ [فصلت:١٢] بعد قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ وقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ ﴿وَأَوْحَىٰ﴾.

والفائدة في ذلك أن طائفة من الناس غير المتشرعين يعتقدون أن النجوم ليست في سماء الدنيا، وأنها ليست حفظًا ولا رجومًا، فلما صار الكلام إلى ههنا عدل به عن خطاب الغائب إلى النفس؛ لأنه مهمة ومن مهمات الاعتقاد وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة بطلانه.

ومن الالتفات بالرجوع أو العدول عن مخاطبة النفس إلى مخاطبة الجماعة قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٢٢] وإنما صرف الكلام عن خطاب

نفسه إلى خطابهم، لأنه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم لأن ذلك أدخل في إمحاض النصح، حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه. وقد وضع قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢] مكان قوله: «وما لكم لا تعبدون الذي فطركم» بدليل قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. ولولا أنه قصد ذلك لقال: «الذي فطرني وإليه أرجع».

ب - ومن الالتفات بالرجوع أو العدول عن الخطاب إلى الغيبة، قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

**فإنه إنما قال:** ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولم يقل: «فآمنوا بالله وبي» عطفًا على قوله: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لكي تجري عليه الصفات التي أجريت عليه. وليعلم أن الذي وجب الإيمان به والاتباع هو هذا الشخص الموصوف، بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وبكلماته كائنًا من كان أنا أو غيري؛ إظهارًا للنصفة وبعدًا من التعصب فقرر أولاً في صدر الآية أني رسول الله إلى الناس، ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة لغرضين: الأول منهما إجراء تلك الصفات عليه، والثاني الخروج من تهمة التعصب.

ومن هذا النوع أي من الالتفات بالرجوع أو العدول عن الخطاب إلى الغيبة، قول ابن النبيه:

**من سحر عينيك الأمان الأمان ... قتلت ربّ السيف والطيلسان**
**أسمر كالرماح له مقلة ... لو لم تكن كحلاء كانت سنان**

فقد عدل عن الخطاب في البيت الأول إلى الغيبة في البيت الثاني لغرض بلاغي، قد يكون التفنن في الأسلوب وقد يكون التمكن من بناء التشبيه الذي يشبه فيه القوام بالرمح، مع المحافظة على سلامة الوزن الشعري.

والقسم الثاني من الالتفات، هو الخاص بالرجوع أو العدول عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر.

**ويقول ابن الأثير:** إن هذا القسم كالذي قبله، في أنه ليس الانتقال فيه من صيغة إلى

صيغة طلبًا للتوسع في أساليب الكلام فقط، بل الأمر وراء ذلك، وإنما يقصد إليه تعظيما لحال من أجرى عليه الفعل المستقبل وتفخيمًا لأمره، وبالضد من ذلك فيمن أجرى عليه فعل الأمر.

فمن الالتفات بالرجوع أو العدول عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٣-٥٤].

**فإنه إنما قال:** ﴿أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا﴾ [هود: ٥٤] ولم يقل: «**وأشهدكم**» ليكون موازنًا له وبمعناه، لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم؛ ولذلك عدل به عن لفظ الأول - المستقبل - لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر، كما يقول الرجل لمن ساءت علاقته به: اشهد على أني أحبك؛ تهكمًا به واستهانةً بحاله.

ومن الالتفات بالرجوع أو العدول عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر؛ بغرض التوكيد لما أجرى عليه فعل الأمر لمكان العناية بتحقيقه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

**وكان تقدير الكلام:** أمر ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد، فعدل عن ذلك بالالتفات إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده في نفوسهم، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب، إذ عمل الجوارح لا يصلح إلا بإخلاص النية، وقال النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**».

أما القسم الثالث والأخير من أقسام الالتفات فهو الخاص بالإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالفعل الماضي.

فالأول هنا، هو «**الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل**». وبيان ذلك أن الفعل المستقبل إذا أتى في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي. والسبب في ذلك أن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها وليس كذلك الفعل الماضي.

وليس كل فعل مستقبل يعطف على ماضٍ يجري هذا المجرى، وتفصيل ذلك أن عطف المستقبل على الماضي ينقسم إلى ضربين: أحدهما بلاغي وهو إخبار عن الفعل

الماضي بمستقبل، والآخر ليس بلاغيًا، وليس إخبارًا عن فعل ماض بمستقبل، وإنما هو مستقبل دل على معنى مستقبل غير ماض. ويراد به أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض.

**فالضرب الأول كقوله تعالى:** ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

**فإنما قال:** ﴿فَتُثِيرُ﴾ [الروم: ٤٨] مستقبلاً وما قبله وما بعده ماض، وذلك حكاية للحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب، واستحضار لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة... وهكذا يُفْعَل بكل فعل فيه نوع تميز وخصوصية، كحال تُستَغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك.

**ومن هذا الضرب قوله تعالى:** ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] فقال أولاً: ﴿خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بلفظ الماضي، ثم عطف عليه المستقبل وهو «**فتخطفه وتهوي**» وإنما عدل في ذلك إلى المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهُويّ الريح به في مكان سحيق.

**ومنه كذلك قول تابط شرًا:**

بأني قد لقيت الغول تهوي ... بشهب كالصحيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرَّت ... صريعًا لليدين وللجران [1]

فتأبط شرًّا قصد في هذين البيتين أن يصور لقومه الحال التي تشجع فيها على ضرب الغول، كأنه يريهم إياها مشاهدة ماثلة أمام أعينهم للتعجب من جرأته على ذلك الهول، ولو قال: «**فضربتها**» عطفًا على الفعل الماضي قبله وهو «**لقيت**» لزال الغرض البلاغي المذكور.

أما الضرب الثاني، وهو الفعل المستقبل الذي يدل على معنى مستقبل غير ماض، يراد به أنه فعل مستمر الوجود لم يمض، فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن

(١) **الغول بالضم**: الحية، والسعلاة، والداهية، وكل ما اغتال الإنسان وأهلكه فهو غول، وكانت العرب تزعم أن الغيلان في الفلوات والصحارى تتراءى للناس فتتغول تغولاً، أي تتلون تلونًا في صور شتى؛ فتضلهم عن الطريق وتهلكهم. وعلى هذا المعنى تكون الغول التي ورد ذكرها في البيت قد تمثلت لتأبط شرًّا في صورة ناقة أو جمل. والصحصحان: الأرض المستوية الواسعة؛ والجران بكسر الجيم: مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره، وإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض قيل: ألقى جرانه بالأرض.

سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج :٢٥] فإنه إنما عطف المستقبل ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ [الأنفال :٤٧] على الماضي ﴿كَفَرُوا﴾ [البقرة :٦] لأن كفرهم كان ووجُد ولم يستجدوا بعده كفرًا ثانيًا، وصدهم عن سبيل الله متجدد على الأيام لم يمض وجوده، إنما هو مستمر يستأنف في كل حين.

**ومن هذا الضرب ايضا قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج :٦٣] فهنا عدل عن لفظ الماضي إلى المستقبل فقال: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ ولم يقل: «فأصبحت» عطفًا على «أنزل» وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زمانًا بعد زمان فإنزال الماء مضى وجوده واخضرار الأرض باق لم يمض.

**وهذا كما تقول: «أنعم على فلان فأروح وأغدو شاكرًا له»** ولو قلت: **«فرحت وغدوت شاكرًا له»** لم يقع ذلك الموقع، أنه يدل على ماضٍ قد كان وانقضى. وأما الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل فهو عكس ما تقدم ذكره، وفائدته أن الفعل الماضي إذا أخبر عن المستقبل الذي لم يوجد بعدُ كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد.

وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يُستعظم وجودُها. والفرق بينه وبين الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضي أن الغرض بذلك تبين هيئة الفعل واستحضار صورته؛ ليكون السامع كأنه يشاهدها، والغرض بالإخبار بالماضي عن المستقبل هو الدلالة على إيجاد الفعل الذي لم يوجد.

فمن أمثلة الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل :٨٧]، فإنه إنما قال: ﴿فَفَزِعَ﴾ بلفظ الماضي بعد قوله: ﴿يُنفَخُ﴾ وهو مستقبل؛ للإشعار بتحقيق الفزع، وأنه كائن لا محالة، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعًا به.

ومن أمثلة الالتفات بالإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل أيضًا قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف :٤٧]. وإنما قيل: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ ماضيًا بعد «نسيرّ وترى» وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليشاهدوا تلك الأحوال، كأنه قال: وحشرناهم قبل ذلك لأن الحشر هو المهم، لأن من الناس من ينكره كالفلاسفة وغيرهم، ومن أجل ذلك ذُكر بلفظ الماضي.

فالعدول بالالتفات عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى - لا يكون كما رأينا - إلا لنوع من الخصوصية اقتضت ذلك. وهذه أمر لا يتوخاه في كلامه إلا المتمرس بفن القول والعارف بأسرار الفصاحة والبلاغة [١].

**الجمع:**

الجمع: هو أن يُجمَع بين متعدد في حكم واحد، أو هو أن يجمع المتكلم بين شيئين فأكثر في حكم واحد، كقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] فقد جمع الله سبحانه وتعالى «المال والبنون» في الزينة.

**ومنه قوله تعالى:** ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٥-٦] [٢] فجمع بين الشمس والقمر في الحسبان أي الحساب الدقيق، وجمع بين النجم والشجر في السجود أي الانقياد لإرادة الله سبحانه.

**ومنه قوله ﷺ: «من أصبح آمنا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»** [٣] فجمع الأمن ومعافاة البدن وقوت اليوم في حكم واحد هو حيازة الدنيا وامتلاكها بحذافيرها أي من جميع نواحيها.

**ومنه شعرا قول أبي العتاهية:**

**إن الفراغ والشباب والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة**

فجمع الشاعر بين الفراغ والشباب والجدة أي الاستغناء في حكم واحد هو المفسدة، أي أن هذه الأمور تؤدي بصاحبها إلى الفساد.

**التفريق:**

التفريق في اللغة ضد الاجتماع.

والتفريق في اصطلاح البديعيين هو إيقاع تباين بين أمرين من نوع في المدح وغيره.

---

(١) انظر في هذا الموضوع كتاب المثل السائر لابن الأثير ص ١٦٧- ١٧٣.

(٢) **الحسبان بضم الحاء كالغفران**: الحساب الدقيق؛ والنجم هنا: النبات الذي ينجم أي يظهر من الأرض ولا ساق له؛ والشجرة: النبات الذي له ساق وله أغصان؛ ويسجدان أي ينقادان لما أراده سبحانه منهما.

(٣) **السرب بكسر السين وسكون الراء**: النفس وهو المراد هنا؛ ومن معانيها أيضًا: الجماعة من النساء والبقر والقطا والشاء والوحش؛ والجمع أسراب؛ والحذافير: النواحي؛ وأحدها حذفار.